الفصل الرابع
المنطـــق

10) اليقين وقوى المعرفة.

11) التحليل أو منهج الكشف.

12) ترابط الأفكار والإنطباعات.

13) اللغة أو المنهج التحليلى.

14) ميتافيزيقا الحس أو ميتافيزيقا الرمز وفلسفة اللغة.

15) تعليق وتقييم.

1) اليقين، وقوى المعرفة:

تمثل المعرفة عند كوندياك إحدى قوى النفس التى تساعدنا على تحديدالطريق الواجب اتباعه للكشف عن الحقيقة وعرضها وتجنب الخطأ ،ويرى كوندياك أنه لا يوجد فى الحقيقة إلا علم بالطبيعة يستحيل تقسيمه؛ لأننا نتناوله ككل واحد ، وبالمثل لا يوجد غير منهج واحد نطبقه على جميع العلوم.

أما مصادر اليقين فتنقسم إلى ثلاثة أنواع أو درجات هى: يقين العقل، يقين الإحساس ويقين الفعل [1].

فنحن نحصل على يقين العقل عندما نتيقن من الأعمال بملاحظاتنا الخاصة ، أما يقين الإحساس فنحصل عليه من خلال ما نلاحظه فى نفوسنا من معرفة خاصة بالظواهر، فى حين نحصل على اليقين الثالث من العقل وهو يعتمد على الذاتية. فى ضوء ما سبق تصبح لدينا ثلاث وسائل لليقين هى: الإدراك الحسى الخارجى، والشعور، والعقل الذى وضع كوندياك بقينه فى حقيقة الذاتية[2].

والمعرفة عند كوندياك تنقسم إلى قسمين هما: الأفكار البسيطة، والأفكار المركبة.

تمثل الأولى ما تمدنا به الحواس من إدراكات حسية، وهى من ثم منفصلة، وتأتى الثانية إلينا من اجتماع الأفكار البسيطة.

---

(1) Trait des sensations P 87.

(2) Ibid P 91.

وفضلاً عن مصادر اليقين ودرجاته يشير كوندياك إلى ثلاثة وسائل مترابطة نحصل بها على أكثر معارفنا وهى :

الوضوح فى الإحساسات، والوضوح فى العقل الذى نميز به بين النفس، والجسد، والوضوح، والسجد، والوضوح فى العقل يمدنا بوجود الموجودات الخارجية. وفضلاً عن وجود الأفعال، والإحساسات، والاستدلالات يوجد الحدوس والتماثل لكن الحدوث لاتنطوى على وضوح كاف[1].

2) التحليل أو منهج الكشف:

بعد أن عرض كوندياك لليقين فى مصادره ودرجاته، وللمعرفة البسيطة والمركبة، يبحث فى موضوع التحليل فيعرفه بأنه: الحقيقة أو السر الوحيد للكشف أو هو منهج الاكتشافات، وسيصبح هذا المنهج فيما بعد هو المنهج الذى طبقه كوندياك على كل أعماله بعد ذلك[2].

ويعزى الفضل للتحليل فى تقديم التعريفات الدقيقة وترتيب الأفكار، ومقارنتها من جميع الجوانب التى يكتشفها، فهو منهج المعرفة الوحيد، وغالباً ما يكون مصحوباً بالنقد التركيب، وهو ما كان يبدو عقيماً من وجهة نظر كوندياك.

---

(1) Ibid.

(2) Ibid P 91.

أما القياس فهو الوسيلة إلى التركيب، وهو يتكون من الاستدلال فى صورة جدل، وهو منهج لا فائدة منه. والتركيب منهج معتم يبدأ بما يجب أن ينتهى به[1].

ويرى كوندياك أننا نعمل اليوم على التوفيق بين طريقتى التحليل، والتركيب ونسير باتحادهما قدماً نحو الحقيقة

فالتحليل يركب أو يحلل أفكارنا فنكتشف بمقارنتها ما ينتج عنها من نتائج وأفكار جديدة، فلو أننا أردنا معرفة باطن ما هو ظاهر فسوف نوضح أو نحلل أو نرتب بنظام كل أجزاءه أمامنا، ونفحص طريقة صنع كل وحد منها بمفرده، وكيف يؤثر كل منهما على الآخر، فنحن فى التحليل والتركيب نحاول الوصول إلى النتائج بين الأشياء مثل من يريد معرفة الآلة؛ فيفصل كل جزء من أجزاءها ويحاول دراسته بدقة[2]. ثم يتصور كمال هذه الآلة لأنه يحلل ويركب، وفى ضوء ما سبق يكون التحليل عند كوندياك هو منهج تحليل وإعادة تركيب فمثلاً يطلعنا تحليل الماء على أنه مكون من عنصرى الأوكسجين والهيدروجين[3]. وعند إعادة تركيبه يتكون الماء.

يقول مين دى بيران تحت اسم التحليل يكون التركيب الحقيقى، وهكذا يرى كوندياك أن التحليل هو المنهج الوحيد والمفضل عنده، استخدمه فى سائر العلوم الجزئية، وفى الرياضيات، كما طبقه

---

(1) Ibid 94.

(2) Ibid P 94.

(3) Ibid P 96.

فـــى الميتافيزيقـــا والأخـــلاق والسياســـة، وكـــذلك فـــى قواعـــد اللغة، والاقتصاد، والسياسة، وفى التاريخ، والفيزياء ثم انتهى منه إلى عرض موضوع هام آخر هو موضوع الترابط.

3) ترابط الأفكار، والانطباعات:

يخلص كوندياك من عرض موضوعى اليقين والتحليل وصلتهما بالمنطق والمعرفة إلى عرض موضوع ترابط الأفكار الذى يعده السر الوحيد للتحليل بل أول اكتشاف، وهو يختلف عن تداعى المعانى، ويخضع لقوانين واحدة فى سائر اللغات، ولا يختلف إلا فى ترجمة الإشارات المختلفة[1].

وينتج ترابط الأفكار من الإنطباعات المتتالية على الإنسان، مما يسمح بتفسير قوى النفس مثل التحليل، والتأمل، والذاكرة، كما يكون علة لها وللانتباه.

ويمثل ترابط الأفكار قوة فى الشخص الذى يبلغ سناً معينة من النضج والعقل والقدرة على الاستدلال، وهو قوة تحفظ وجودنا، وخصائص نفوسنا، كما أنه مبدأ لفن التفكير والكتابة يُخلق بفضله أعظم كاتب، وعلم وفيلسوف. وبفضل الترابط نحصل على الأشياء، فنحن لا نحصل على شيء ما لم يكن الترابط كبيراً؛ لأنه يساعد على سهولة التحليل. ولكن كيف تترابط الأفكار فى ظل قوى وحاجات النفس؟

([1]) Ibid P 101.

الترابط يأتى عن طريق الحاجات التى يخلقها العقل، وهذه الحاجات ترتبط مع إدراكات الحاجات التى ترتبط فيما بينها[1]. يقول كوندياك: "ونحن: نعلم أن مجموعة الأفكار الجوهرية تتداعى طبقاً لترابطها الكبير نتيجة إحساسات اللذة والألم[2]".

4) اللغة أو المنهج التحليلى:

بعد أن يعرض كوندياك لليقين والتحليل وترابط الأفكار يشير إلى موضوع اللغة باعتباره من الموضوعات الهامة فى المنطق، وانطلاقاً من إيمانه بأن اللغات تمثل المناهج التحليلية، ويأتى موضوع لغة الحركةLangue de Mouvement فى مقدمة الموضوعات التى يعرض لها. فما هو معناها؟

إن لغة الحركة تعنى العناصر المكونة للأعضاء التى منحها الله خالق الطبيعة وهى فطرية وسابقة على الأفكار[3].

وقد لاحظنا أن تطور أفكارنا ونموها وكذلك ملكاتنا لا يتم إلا بواسطة رموز لا يمكنه الاستغناء عنها، كما لا حظنا أن طريقتنا فى التفكير لا يمكن تصحيحها إلا بتصحيح اللغة وأن كل الفن يتلخص فى إجادة لغة كل علم.

وقد أثبتنا أن اللغات الأولى فى أول نشأتها قد أجيد صياغتها؛ لأن الميتافيزيقا التى أشرفت على وجودها لم تكن علماً مثلما هى اليوم، وإنما غريزة منحتها الطبيعة لنا.

---

(1) Ibid P 108.

(2) Ibid.

(3) Ibid.

لقد خلقنا الله وكوننا ضمن مجموعة لكى يحفظ وجودنا، ووضع تكويننا الخارجى وحدده لكى يشير ويقدم كل ما يمر بالنفس، كما يحدد إحساساتنا وأحكامنا، ونحن عندما نتحدث إنما نتحدث بلغة الحركة التى نحسها، كما نحتاج السمع كذلك كى نستقبل العون من أمثالنا، ونلاحظ حركاتهم وأفعالهم وخصائصهم على الدوام ثم نكرر هذه الحركات[1].

على هذا النحو تصبح لغة الحركة بالنسبة لنا هى لغة التحليل، فهى تحلل أفعالنا التى تكون لوحة فكرنا، كما تحلل فكرنا ذاته بواسطة الإشارات الأولية.

يقول كوندياك: "لغة الحركة هى ما ترجع إليها جميع أفكارنا لكن الإنسان يسد الطريق أمام الحركة أو الإشارة، ويستبدلها بلغة الألفاظ ويتكلم بالصوت فحسب قبل أن يتروى"[2]. وهكذا يرى

([1]) Ibid P 105.

([2]) Ibid P 105.

- تعد إشارة كوندياك إلى أهمية اللغة رجوعاً منه إلى جون لوك واسيمداد من أفكار، باعتبار المنبع الأول لفلسفة كوندياك، فقد رأى الأخير أن دراسة اللغة تؤيد رد المعرفة إلى الإحساس فاللغة هبة زود الله الإنسان بها، وهما شيء مصنوع بالرغم من توارث الناس لها، ومع ذلك فهى اختيارية لعدم وجود حيلة ضرورية من أى لفظ وما يشير إليه من أفكار، واللغة ما هى إلا علامات حسية معينة ترمز أو تشير إلى الأفكار الموجودة فى الذهن، ومن ثم تصبح الأفكار التى تشير إليها هى الدلالة الحقيقية المباشرة لها.

وقد شاد إعتقاد قديم عن معنى "الكلمة" يحدد دورها فيما تشير إليه فحسب فإذا قلنا كوب فهذا يعنى أنها تشير إلى شيء خارجى موجود فى الواقع هو الكوب، وجاء لوك وطور هذا الاعتقاد مشيراً إلى أن الكلمة تشير إلى الفكر الموجود فى الذهن عن

كوندياك أن اللغات تبدأ قبل الشروع فى العقل، وتصبح بعد ذلك المنهج التحليلى الذى يخدم المعرفة تماماً مثل لغة الإشارات "ولا شك فى أن اللغة هى وسيلتنا إلى التفير، وهى منهج التحليل الذى يعبر عن حاجتنا الأولية والضرورية، فهى تساعد على تقدم العلوم، وهى الوسيلة الأولى للعلم الكامل. والتحليل إذن هو المنهج الحقيقى الوحيد الذى يعمل على ترابط الأفكار، وافتراض الكلمات التى تحدد، وتقارن، وتربط الأفكار"[1].

والخلاصة فقد كان التحليل هو منهج كوندياك الذى أوصى بتطبيقه قبل دراسة الظواهر، وأطلق عليه اسم منهج التحليل والتركيب[2]. وأشار إلى أهمية ترابط الأفكار (المعانى)، كما درس نتائج الفكر واللغة بدقة، وطبق منهجه فى مجالات مختلفة مثل دراسة التاريخ والاقتصاد السياسى، وقواعد اللغة، كما حاول تطبيقه فى مجال علم النفس، وترتيب الظواهر. ونجح وما زال معمولاً به حتى الآن.

5) ميتافيزيقا الحس أو ميتافيزيقا الرمز وفلسفة اللغة:

عندما نبحث عن ميتافيزيقا الحس عند كوندياك هل يجدر بنا أن نبدأ من المنطق أو من الميتافيزيقا؟ هذا هو السؤال الذى يطرح نفسه فى هذا الموضع.

الشيء والوقعى التى تشير إليه، وهكذا أصبحت الكلمات لا تشير فى دلالتها المباشرة الأولية إلا إلى الأفكار الموجودة فى ذهن قائلها، وهكذا يرتبط وضوح الكلمة بوضح الفكرة التى ترمز إليها.

Locke-John: AN Essay Concerning Human understanding V,2 Book II ch X (of the obuse of worols) P.P 140-147 by, Alexander campell fraser Dover publication, New York 1959.

(1) Trait des sensations P 107.

(2) Ibid P 131.

إن كوندياك يبحث فى المنطق، فى التحليل، كما يذكر أهمية اللغة والرمز فما هى الصلة إذن بين ميتافيزيقاه الحسية، وميتافيزيقا الرمز وفلسفة اللغة من جهة أخرى؟

لقد أثبت الباحثون والمفكرون فى الفلسفة الحسية لكوندياك أن كتاب المنطق قد وضع اللغة الأساسية لكتاب "المقال"، مما يدل على سبق المنطق وأهميته فى بناء المعرفة فكل من قاعدتى "الاقتراحات المشابهة" "والقاعدة التحليلية" تفترضان أن نمو المعرفة والتطور التدريجى للفكر لا يتم إلا بتعديل وتركيب مادة كانت تقبل التعديل فى الأصل. فهذه هى الإحساسات مادة أولى، يتولد عنها عند تحويلها وتركيبها وضمها إلى غيرها جميع المعارف.

إن فكرة التعارض بين المادة، وطرق عملها هى المحور الرئيسى الذى يدور حوله كتاب "المقال"، فالإحساسات وعمليات النفس هى المادة الأساسية لجميع معارفنا؛ لأنها تتفاعل بالتفكير من خلال البحث فى تركيبات العلاقات والصلات التى بداخلها"[1]. وهكذا نصل إلى أن عمليات الإدراك ليست إلا الإحساسات نفسها التى تتحول إلى انتباه ومقارنة وحكم وتفكير.

من هنا يمكننا القول بأن هذه المادة الأولى الخرساء، هى نواة متواجدة تطرأ عليها تعديلات ثانوية، كما تدخل فى تركيبات وعلاقات وصلات، ومن ثم تتحول هذه الميتافيزيقا الحسية Metaohysique Sensualiste إلى ميتافيزيقا الرمز، Metaohysique du signe وفلسفة اللغة Philosophie du langage، وعلى هذا النحو

([1]) Condillac, E.B: de l'Art de Raisonner, Bloud- 1749 P 32.

تبرز لنا فلسفة كوندياك من خلال ميتافيزيقا الرمز وفلسفة اللغة فى رؤية جديدة مستمدة من البعد الخفى لنصوصه الظاهرة التى تركز على الحس.

وإذا أردنا أن نجد حلولاً للأمور المتعارضة التى تتكون أو تطرأ يجب أن نصل إلى المنطق والتماثل الذى ينمى الحسة ويطورها فى شكل رموز، فالحاسة تنمى لا لكونها عنصراً أولياً بسيطاً فحسب، وإنما لكونها بذرة صالحة للإنبات، وبروز التشبيه المجازى البيولوجى والحيوى أمر متعارف عليه عند كوندياك . ففى مقدمة كتابه "فن التفكير" [1]. نجده يدرس ويطور ويزيد فى الجملة التى تعد نواة الكتاب: "إن بذور فن التفكير فى إحساساتنا" وتطور الجملة وتوسيعها هو وصف تماثلى لنمو الفكر يشبه وصف الحيوان، ولتفسير كتابه "المقال" يفسر لنا كوندياك نظرية فى الرموز واللغة كنظام ينمى البذرة أو النبتة الأساسية موضوع الجزء الأول فى كتابه وهو يقول: "ظننت أن نظرية اللغة ستشغل حيزاً كبيراً فى كتابى هذا لأنها من جهة لا يمكن النظر إليها وتناولها بطريقة جديدة وأكثر اتساعاً، ومن جهة أخرى لأننى مقتنع تماماً أن استعمال الرموز هو المبدأ الذى تنمو وفقه نبتات، أفكارنا كلها"[2].

والتعارض بين النبتة وتطورها يعنى ذلك الذى يوجد بين الشكل والمضمون، ونعنى بالأول طريق العمل، أما الثانى فنعنى به المادة، ويلعب مبدأ التماثل أو التحليل التماثلى دوراً رئيسياً فى ضمان المرور والاتحاد

([1]) De l'art de penser lebzig 1748.

([2])"Le germe l'art de penser est dans nos sensations" .

والقوة بين شقى هذه المعارضة. من هنا يجب أن يكون التسائل حول هذا التماثل؟[1].

ولو كان التعبير المجازى مبنياً على مفهوم التماثل فنحن لا نضيف شيئاً عندما نقول أن النبتة مثلاً تعد تعبيراً مجازياً. ولمزيد من التوضيح يجب النظر إلى علم العروض والنظم وفلسفة النظم الخاصة بكوندياك.

6) تعليق وتقييم:

لقد انصب المنطق عند كوندياك فى ضوء المذهب فتأسس على افتراض أن المعرفة إنما تقوم أولاً على الإحساس، وعلى إدراك المعطيات الحسية فأى معرفة إنما تنصب منذ البداية على وحدة المحسوسات، أى على المعرفة الجزئية المحسوسة، فالفيلسوف الحسى يبدأ معرفته من الوقائع الجزئية أى من الجزئى لكى ينتهى إلى تفسير المركب الداخلى وإلقاء ضوء على تجميع أجزائه وترابطها فليس كوندياك سوى واحد من هؤلاء الفلاسفة الذين يحاولون تفسير الوجود من الجزئى المحسوس إلى المركب المحسوس، وقد حمل كوندياك هذه الرسالة مؤمناً بالإحساس المنطقى لمنطق أرسطو القياسى، ومنطق بور. رويال فنشأ المنطق فى ظل موقفه من الحسى والمحسوسى.

لقد أبرز كوندياك فى كتابه المنطق العديد من الموضوعات الهامة لكن أكثرها وضوحاً كان ذلك المتعلق "بالتماثل" analogie والإقتراح المشابه (المماثل) la Proposition identique ، وتاريخ العالمL'histoire de le science وهو يشرح فيه كيفية التماثل مع

([1]) Condilac: Essai P 103.

أخذ مبدأ اختلاف الدرجات فى الاعتبار (يجب أن نميز فى التشابه بين الدرجات المختلفة)، كما يشرح كيف يستلزم الأمر ضم هذا المبدأ إلى مبدأ اقتصاد القوة والحيوية le principe economique de force vivacite وكمية الصلات (تنوع الصلات بين الأفكار طبقاً لنوعية التراكيب وتنوعها، وأستطيع تبعاً لذلك نخيل تركيبة تعظم فيها الصلة وتكبر إلى أقصى درجاتها. فإذا لاحظت فى شيء جانباً على علاقة بالأفكار التى أبحث عنها فسوف أكتشف كل شيء[1].

وهكذا يمكن أن يفهم فى ضوء فلسفة ومنطق كوندياك أن التركيبى Combinatorire طاقة، وأن عناصر علم قوانين التصنيف element taxinomiques تعد طاقة مجددة. ويفترض التشابه (والأمر هنا متعلق بالثورة الثنائية للأرض) أن النتائج المتشابهة لها نفس الأسباب، وهذا الفرض supposition يؤكد تماثلات وتشابهات وملاحظات أخرى مما يجعل من الصعب التشكيك فيها "وعلى هذا النحو كان يفعل كبار الفلاسفة فإذا ما أردنا محاكاتهم فى طريقة تفكيرهم فإن دراسة الاكتشافات التى تمت بدءاً من جاليليو حتى نيوتن تعد من أفضل السبل لذلك" la logique ويذهب كوندياك فى مبحثه فى المنطق إلى أن الطبيعة هى المعلم الأول لنا فقد راقبناها ولا حظناها وتعلمنا منها التحليل. وبنفس هذا المنهج درسنا أنفسنا، وبعد العديد من الآراء توصلنا إلى أن أفكارنا وملكاتنا ليست إلا إحساسات قد أخذت أشكالاً مختلفة مما أكد لنا نشأه هذه الأفكار وخروجها من بعضها البعض.

([1]) Condilac La Logique P 283.

وهكذا فقد انصب اهتمام كوندياك على دراسة المنطق (منطق بور- رويال) بشكل كبير، كما جاهد فى سبيل تقدم النظريات اللغوية الحديثة[1].

ولقد استطاع كوندياك وهو يدرس العقل الإنسانى أن يثبت صحة بعض التعريفات الأساسية مثل الإنتباه، والحكم، والإستدلال فأخضعها للتحليل، واستخدام المنطق لتحديد نظام خاص منتقلاً من افتراض إلى آخر حتى انتهى به الأمر إلى ما هو أكثر تعقيداً.

يقول لوك عن كوندياك: "لقد استطاع الأخير أن ينهج وسائل خاصة للتحليل فقسم العقل إلى أجزاء متنوعة مثل قطع الآلة، ومن ثم فعليك لكى تعرف هذه الآلة أن تعرف أجزاءها وتركيباتها، وتحديد اتجاه حركتها"[2].

ومن جهة أخرى فقد رأى كوندياك أن عقل الإنسان يعمل فى ضوء مرحلتين: أولهما هى الفهم، وثانيتهما هى معرفة حدود قوى العقل الإنسانى، وهو يستخدم لذلك الأمر القياس عن طريق التحليلات الخاصة بالرياضيات حيث تساعد جميع هذه العمليات على فهم الانتباه والإحساسات التى تخضع للتحليلات المناسبة، ويشبه ذلك الانتقال من الشكل البسيط إلى الأفكار المنطقية، وقد استطاع كوندياك أن يؤمن إطار الفهم الصحيح لطبيعة وحدود العقل البشرى، فاستخدم اللغة بشكل أساسى فى فلسفته، بعد أن رأى أنها بشكلها وعناصرها البسيطة تساعد على إكتمال إدراك الفكر الإنسانى، وهذه هى

---

(1) Perit Laraousse, Robert 2, Saint Germain Paris 1975 P 448.

(2) Locke, John. An Essay Concerning Human understanding V.II, P. P 11.18.

الوسيلة الرئيسية التى تعتمد فى حد ذاتها على إطار اللغة، وتفهمها بواسطة العقل الذى يمكن أن يدرك الأشياء من خلال أسلوب محدد معتمداً على التجارب المسبقة وهذا منحى فلسفة كوندياك فى اللغة، فقد كان يسعى لتشكيل لغة التفاهم.

وفضلاً عن ذلك فقد استفاد كذلك من التحليل عن ديكارت، عندما استخدم التحليل من البسيط إلى المعقد، ومن الجزء إلى الكل، واعتبر التحليل هو الغاية الرئيسية لنجاح الأفكار، وتقدم المعرفة.

ولكن تجدر الإشارة إلى أمر هام برز من خلال ميتافيزيقا كوندياك فقد تكشفت فلسفته عن جمع بين الضرورة المنشأة exigence generative والضرورة المركبة exigence combinatoire لكن ذلك يبدو فى ظاهرة وكأنه يحدث إخلالاً أو نقصاً فى المذهب، كما يفتح باب أساطير مبحث العلوم، لكن هذا المظهر الذى يبدو من فكرة كوندياك لا يستلفت سوى نظر هؤلاء الفلاسفة الذين يرفضون التفكير فى مثل هذه الضرورات ولا يقرونها إلا على سبيل الاستثناء. ومن جهة أخرى فإن مفهوم أسطورة مبحث العلوم لا يعنى هذا المفهوم السلبى. فما هو إذن وضع جميع أساطير مبحث العلوم فى تاريخ العلم؟

إن هذه الأساطير لا تتمسك بالضرورتين، وبشكل جدلى فإنها تعارض ميتافيزيقا الحساب calcul والتكون genese وهنا يبرز لنا تساؤل هام وهو ما هى الشروط التى يجد النص بواسطتها- من خلال ما سبق وفى حدود محاورة المعرفة – موافقاً وملائماً لفورات التقدم العلمى (علم الأحياء، والهندسة الوراثية وعلم اللغويات، وعلم التحليل النفسى على سبيل المثال) علماً بأن كاتبه، ووقت نشره وظهوره ليسوا

معاصرين؟ إن ما يفصل نص عن كاتبه ووقت ظهوره هى تلك الضرورة وذلك الإلتزام القوى بمبحث علوم أسطورى Mythique episteme.